الفصل الثانى

رواية الشعر

رواية الشعر – عوامل تمرس الأصمعى به – ملاحظه الدقيقة فى النقد – رواية الدواوين – منهج الأصمعى فى الرواية .

الأصمعى من رواة اللغة والشعر ، ولقد تحدثنا عنه راوية للغة فكيف تسلح لرواية الشعر ؟

إذا عرضنا لحياة الأصمعى فى بدئها ، واختلافه إلى أبى عمرو بن العلاء يقرأ القرآن – وجدنا أن أستاذه لم يكن قارئاً للقرآن فحسب ؛ وإنما كان من أئمة رجال اللغة والشعر ، وكان له مجلس يعقد لروايتهما إلى جانب مجلسه لإقراء القرآن ، وكان من الطبيعى أن يأخذ الطالب طريق أستاذه ، فيهتم إلى جانب قراءة القرآن برواية الشعر .

كان الأصمعى يسكن البصرة فى حى بنى أصمع ، وكان هذا الحى يتوسط سكة المربد والمسجد الجامع فأينما توجه وجد بغيته : المربد وفيه يجتمع الشعراء والأعراب ، والمسجد وفيه شيوخ اللغة والشعر .

ومن العوامل التى حفزت الأصمعى إلى رواية الشعر أنه كان فى العراق ظاهرة عامة تتمثل فى عناية البيئات العلمية برواية الشعر بغية التعرف على صحيح اللفظ وصحيح معناه كما ورد على ألسنة العرب بعد أن ظهر اللحن فى الأمصار لتعدد الألسن وظهور العبارات الركيكة على ألسنة الشعوبيين .

ومن البواعث أيضاً تحقيق المجد الأدبى بعد أن لاحظ الأصمعى عناية الأمويين برواة الشعر حين كانوا يرسلون إلى قتادة بن دعامة السدوسى يستفسرونه ؛ كما كانوا يرسلون فى طلب حماد الراوية يستوضحونه إذا غم عليهم البيت أو القصيدة . ورأى الأصمعى مكانة المفضل الضبى فى بلاط العباسيين ، ربما سعى الأصمعى إلى تحقيق هذا المجد . وبدأ يلتمس الشعر . فأعانته فطرة خالصة العروبة ، وحافظة لاقطة واعية .

فالأصمعى عربى خالص العروبة ، ولنا أن نضع فى أول الاعتبارات عنصريته هذه التى أعانته على المضى فى رواية الشعر ، وتذوقه لطعومه المختلفة ، ولنا أن نقول أيضا : إن اللغة التى تستخدم فى قرض الشعر غير تلك التى تستخدم فى الأحاديث العامة ، ومدار الأخيلة والأحاسيس يستند استنادًا قويًا إلى تلك الفطرة التى لا يقف صاحبها عند حد الحفظ والمعرفة بالمعانى ، ولكنه يستخدم إلى جانب ذلك إحساسه للتعرف على المدلول الواسع للفظ والظلال التى تحيط بالمعانى ، فتخرجها من مدلولاتها الحقيقية المحدودة إلى مدلولات مجازية واسعة لا يكاد يدركها غير العربى القح .

أما عن حافظته الواعية فلقد كان الأصمعى أحد الحفاظ المعدودين فى التاريخ الأدبى ، والأقوال التى تدور حول هذه الصفة تبلغ حد الأساطير والخرافات ، قال عن نفسه : ما بلغت الحلم حتى رويت اثنى عشر ألف أرجوزة[١] وقال عمر بن شبه : سمعت الأصمعى يقول : أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة[٢] والخبر على هذه الصورة مدعاة للشك ؛ فليس فى القصيد العربى كله هذا القدر من الأراجيز ، وإذا كانت هذه بضاعته من الرجز فكم من القصيد ؟ ولذلك جاز لنا أن نصرف النظر عن المدلول الحرفى للخبر إلى القصد فى الإبانة عن سعة الحفظ ، ولكنْ نرى خبرًا آخر أكثر غرابة يرويه أحمد بن بكير النحوى فيقول :

لما قصد الحسن بن سهل العراق قال : أحب أن أجمع قومًا من أهل الأدب ، فحضر أبو عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعى ، ونصر بن على الجهضمى ، وحضرت معهم ، فابتدأ الحسن ، فنظر فى رقاع كانت بين يديه للناس فى حاجاتهم ، ووقع عليها ، فكانت خمسين ورقة ، ثم أمر فدفعت إلى الخازن ، ثم أقبل علينا فقال : قد فعلنا خيرًا ونظرنا فى بعض ما نرجو نفعه من أمور الناس والرعية فنأخذ الآن فيما نحتاج إليه ، فأفضنا فى ذكر الحفاظ فذكرنا الزهرى ، وقتادة ، ومررنا فالتفت أبو عبيدة فقال : ما الغرض أيها الأمير فى ذكر ما مضى ، وإنما نعتمد فى قولنا على حكاية عن قوم مضوا ونترك ما نحضره ، ها هنا من يقول : إنه ما قرأ كتابًا قط فاحتاج أن يعود فيه ، ولا دخل قلبه شىء فخرج منه .

فالتفت الأصمعى فقال : إنما يريدنى فى هذا اللفظ أيها الأمير ، والأمر فى ذلك على ما

---

(١) العقد الفريد ٥ : ٣٠٩ .

(٢) تاريخ بغداد ١٠ : ٤١١ ، انباه الرواة ٢ : ١٩٨ .

حكى ، وأنا أقرّب عليه : قد نظر الأمير فيما نظر فيه من الرقاع وأنا أعيد ما فيها ، وما وقع به الأمير على رقعة رقعة على توالى الرقاع ، قال : فأمر الأمير فأحضر الخازن وأحضرت الرقاع ، وإذا الخازن قد شكّها على توالى نظر الحسن فيها ، فقال الأصمعى : سأل صاحب الرقعة الأولى كذا واسمه كذا فوقع له بكذا ، والرقعة الثانية ، والثالثة حتى مر فى أربعين رقعة ونيف ، فالتفت إليه نصر بن على فقال : أيها الرجل ، اتق على نفسك من العين فكف الأصمعى[٣] .

وشواهد الحال تنبئ عن ذكاء الأصمعى ، وقوة ذاكرته ، وأنه كان يحفظ من الشعر أضعاف ما يحفظ أمثاله : قال أبو عبد الله بن الأعرابى وكأنه يشير إلى هذه الظاهرة : (شهدت الأصمعى وقد أنشد نحواً من مائتى بيت ما فيها بيت عرفناه)[٤] .

تمرسه بالشعر :

وبذاكرته هذه دخل زمرة المسجدين فأخذ ما عندهم ، ثم دخل بيئة المربد وسمع شعراءها وأعرابها ، ثم شد رحاله إلى البادية على النحو الذى ذكرناه فى الباب السابق ، فجمع كثيرًا من المقطعات والأراجيز لأعراب يعرفهم بالعيان ، وأعراب يعرفهم بأسمائهم دون شخوصهم ، فكان يقول : سمعت فتى فى أرض كذا ، أو أعرابية فى طريق كذا ، وما ترك شيخًا أو راوية له بصيرة بشعر إلاّ حاول الإفادة منه حتى اتصل بخلف الأحمر ، وكان شيخ الرواة فى الشعر فتذاكرا القصائد والمقطعات وعرفا مذاهب الشعراء واتجاهاتهم وأساليبهم ، وعاشا فى أخيلتهم أيضاً ، فإذا ذكر البيت من الشعر فطنا إلى قائله أورجحا نسبته إليه ، وكثيرًا ما كان الأصمعى يقول : هذا البيت ليس لفلان ، أو أشبه بشعر فلان .

وكان من حق الأصمعى بعد هذا أن يتكلم فى النقد بالنسبة للشاعر وبالنسبة للشعر : كأن يقول : فلان جرمقانى لا يحسن أن يقول الشعر ، أو يقول : كان حسان فى الجاهلية أشعر منه فى الإسلام ؛ ويعلل ذلك بأن الشعر إذا دخل فى باب الخير لان[٥] أو يقول : فلان فحل .

---

(٣) نزهة الألبا ١٦٧ .

(٤) نزهة الألبا ١٥٣ .

(٥) كان الأصمعى يقول : طريق الشعر إذا أدخلته فى باب الخير لأن : ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا فى الجاهلية والإسلام فلما دخل شعره فى باب الخير من مراثى النبى ﷺ وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما لأن شعره ! الموشح ٦٢ ، ٦٥ .

وفلان ليس بفحل ، ولو أنه قال خمساً أو عشرًا أو عمل كذا وكذا لكان فحلاً .

ولترسه بالشعر كان يرسم للشاعر منهاجاً ؛ ليصبح من الفحول ، فيقول فيما يحكيه ابن رشيق عنه :

(لا يصير الشاعر فى قريض الشعر فحلاً حتى يروى أشعار العرب ، ويسمع العروض ؛ ليكون ميزاناً له على قوله : والنحو ، ليصلح به لسانه ، وليقيم به إعرابه ؛ والنسب وأيام الناس ، ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب وذكرها بمدح أو ذم)[٦] .

ملاحظه الدقيقة فى النقد :

والأصمعى أوسع من هذا معرفة عندما يتكلم عن الشعر ومجال النقد ؛ إذ كان أحسن الرواة إحاطة بمعانى الشعر ، يعينه على ذلك حسه وذوقه من جهة ، وجمعه وتحصيله من جهة أخرى ، وهو لا يكتفى بمجرد الحفظ والرواية ، ولكنه يجمع إلى ذلك المناسبة التى قيل فيها ، وتمثله لروح قائله : أنشد أبو عبيدة قول حاجب بن زرارة :

شتان هذا والعناق والنوم والمشرب البارد فى ظل الدوم .

فأنكر عليه الأصمعى ذلك وقال : ما ابن الصباغ وهذا ؟ وأنَّى لأهل نجد دوم ، والدوم شجر يكون بالحجاز ، وحاجب نجدى فأنى له دوم ؟ ، وكان الأصمعى ينشده الطل الدَّوْم أى الدائم[٧] .

وسأل الأصمعى طلابه عن معنى قول الخنساء فى رثاء أخيها صخر :

يذكرنى طلوع الشمس صخرًا وأذكره لكل غروب شمس

فقالوا : معنى ذلك أنها تذكره صباح مساء . قال : لا ، ولكنها أرادت بقولها هذا أنها كانت تذكر أخاها صخراً عند طلوع الشمس وقت الغارة أو الغزو ؛ لأنه كان من الفرسان ؛ وتذكره عند غروبها وقت القرى وإطعام الضيف ؛ لأنه كان من الأجواد ، فقاموا وقبلوا يده[٨] .

---

(٦) العمدة لابن رشيق .

(٧) نزهة الألبا ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٨) المزهر ٢ : ٣٣٦ .

وذكروا قول امرئ القيس بن حجر :

لنا غنم نسوقها غزارٌ كأن قرون جلتها العصيُّ
فتملأ بيتنا أقطًا وسمناً وحسبك من غنى شبع وريُّ

قال الأصمعى : امرؤ القيس لا يقول مثل هذا ، وأحسبه للحطيئة[٩] .

والأصمعى عندما يقطع بأن هذا ليس بكلام امرئ القيس ، وإنما هو أقرب إلى كلام الحطيئة – فلأنه كان يدرك الفرق بين الرجلين . فامرؤ القيس لا يرضيه من الدنيا إلا أن يكون ملكاً فكيف يكفيه شبع وري وهو القائل :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفانى – ولم أطلب – قليلٌ من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

وإذا استطعنا أن ننفى مع الأصمعى نسبة هذا الشعر إلى امرئ القيس معتمدين فى ذلك على نص يناقضه من شعر هذا الشاعر – فإننا لا نستطيع معه بوسائلنا العلمية المادية المعروفة أن نلحقه بشعر الحطيئة بنفس الاطمئنان واليقين ، والفرقَ بيننا وبين الأصمعى فى ذلك أنه لكثرة ممارسته للشعر قد وصل من الخبرة بطعومه المختلفة ومذاقاته المتعددة إلى أنه يسمع هذا البيت أو ذاك فيقول لأول وهلة : ليس هذا الشعر لفلان ، إنه أشبه بشعر فلان .

ولقد تلقى لمحات هذا النقد الدقيق القائم على المعرفة التامة بأجواء الحياة البدوية من أستاذه أبى عمرو بن العلاء ، وهو يشير إلى ذلك بقوله :

قرأت على أبى عمرو شعر النابغة الذبيانى ، فلما بلغت إلى قوله :

مقذوفة بدخيس النحض بازلها له صريف صريف القعو بالمسد

قال لى : ما أضر عليه فى ناقته ما وصف . فقلت : وكيف ؟ قال : لأن صريف الفحول من النشاط ، وصريف الإناث من الإعياء والضجر ، كذا تكلمت العرب ، فرآنى بسكوتى مستزيداً فقال : ألم تسمع قول ربيعة بن مقروم الضبى :

كناز البضيع جمالية إذا ما بغمن تراها كتوماً[١٠]

وسمع الأصمعى قول الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها مَرّ السحابة لا ريث ولا عجل

---

(٩) الحيوان ٥ : ٤٩٥ بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

(١٠) الموشح ٤٢ .

فأخذ عليه امتهانه لمحبوبته أن جعلها تغدو وتروح بين بنات الحى ، شأنها فى ذلك شأن بنات السواد من الناس وأوساطهم : فهى كما يقول خَرّاجة ولاّجة . هلا قال كما قال الآخر :

وتكرمها جاراتها فيزرنها وتعتل عن إتيانهن فتعذر[١١]

والثانية بلا شك سيدة مهابة يُسعى إليها ، ولا تسعى هى إلى الناس !

وظل رأى الأصمعى موضع إعجاب النقاد من بعده . ذكر صاحب الأغانى بسنده إلى المبرد قال : (قال لى صالح بن حسان : أنشدنى بيتاً خفراً فى امرأة خفرة شريفة ، فقلنا قول حاتم :

يضيىء لها البيت الظليل خصاصة إذا هى يومًا حاولت أن تَبَسَّمَا

فقال : هذه من الأصنام ! أريد أحسن من هذا ، قلنا قول الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها مرّ السحابة لا ريث ولا عجل

فقال : هذه خَرَّاجَة وَلاَّجة كثيرة الاختلاف ! فقلنا بيت ذى الرمة :

تنوء بأخراها فلأياً قيامها وتمشى الهوينى من قريب فتبهر

فقال : هذا ليس ما أردت ؛ إنما وصف هذه بالسمن وثقل البدن .

فقال : ما عندنا شىء

فقال : قول أبى قيس بن الأسلت :

وتكرمها جاراتها فيزرنها وتعتل عن إتيانهن فتعذر

وليس لها أن تستهين بجارة ولكنها منهن تحيا وتخفر[١٢]

ونراه وقد تصدى لطرفة يعيب عليه حواسه ووجدانه وأن شعره الذى فى صاحبته لا يعبر تعبيرًا صحيحًا عن صفة العاشق حيث يقول :

أصحوت اليوم أم شاقتك هر ومن الحب جنون مستعر

أرَّق العين خيال لم يقر طاف والركب بصحراء يُسُر

ثم قال :

وإذا تلسنى ألسنها إننى لست بموهون غمر !

---

(١١) المرشح ٥١ .

(١٢) الأغانى ١٥ : ١٥٩ ط التقدم .

لا كبير دالف من هـرم أرهب الليل ولا كَلّ الظفر[١٣]

فيعجب الأصمعى لطرفة وهو يقول : إنه لم ينم ولم يهجع لفرط حبه لها ، ثم يتوعدها بعد ذلك ويتهددها ، ويشير إلى قوته وعنفه ، وأنه سوف يلسنها إذا ابتدرته .... !

وذكروا أمام الأصمعى قول الشاعر :

فما برحت فى الناس حتى تبينت ثقيفاً بزيزاء الأساة قبابها

بمعنى : مازالت هذه الخمرة فى الناس حتى أتوا بها ثقيفاً . قال الأصمعى متعجباً : كيف تحمل الخمرة إلى ثقيف وعندهم العنب ؟[١٤] .

وقال المازنى : سمعت الأصمعى يقول : كان امرؤ القيس ينوح على أبيه حيث يقول :

رب رام من بنى ثعل مخرج زنـديه من ستره

فقال (أى الأصمعى) : (فكفيه) إن كان لابد أصلح[١٥] يعنى : أن الإخفاء لا يتفق مع إخراج زنديه !

ووصف النابغة النعام بقوله :

مثل الإماء الغوادى تحمل الحزما

فقال الأصمعى : إنما توصف الإماء فى هذا الموضع بالرواح لا بالغدو ؛ لأنهن يجئن بالحطب إذا رجن[١٦] .

وعاب الأصمعى قول رؤبة :

يهوين شتى ويقعن وفقا

لأن الجياد لا تقع حوافرها معًا ، وإذا وقعن وفقاً فكأنها تضبر ليست تسبح[١٧] .

ووصف أبو ذؤيب فرسه بقوله :

قصر الصبوح لها فشرج لحمها بالنى فهى تنوخ فيها الإصبع

تأبى بدرتها إذا ما استكرهت إلا الحميم فإنه يتبضع

---

(١٣) الموشح ٥٧ .

(١٤) كتاب الصناعتين ٩٦ ط دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٥٢م .

(١٥) الموشح ٣٨ .

(١٦) الموشح ٤٤ .

(١٧) الموشح ٢١٩ .

فقال الأصمعى : هذه الفرس لا تساوى درهمين ! لأنه جعلها كثيرة اللحم رخوة ، تدخل فيها الإصبع ؛ وإنما يوصف بهذا شاء يضحى بها ؛ وجعلها حرونًا إذا حركت قامت إلا العرق فإنه يسيل[١٨] .

ويدلنا هذا على أن الأصمعى كان على إحاطة بدقائق الشعر ولطائفه وملاحظه الخفية ، وله تسميات نقدية بقيت إلى يومنا هذا ، يقول لمحدثه : أتعرف التفاتات جرير؟ قال : فما هى ؟ قال الأصمعى :

أتنسى إذ تودعنا سليمى بعود بشامة – سقى البشام

ألا تراه مقبلاً على شعره ، ثم التفت إلى البشام فدعا له ؛ وقوله :

طرب الحمام بذى الأراك فشاقنى لازلت فى علل وأيك ناضر

فالتفت إلى الحمام فدعا له[١٩]

وقد بقى أسلوب الالتفات معروفاً بالاسم الذى أطلقه عليه الأصمعى ، ودخل به فى أنواع البديع منذ ابن المعتز ، وإلى الآن حاملاً التعريف نفسه والأوصاف نفسها كما ذكرها الأصمعى .

هذه بعض ملاحظه الدقيقة فى النقد .

وبالإضافة إلى هذا الوعى العميق ، والمعرفة بالمعانى فى إطار الحياة البدوية – فإن هناك أقيسة ثابتة كان الأصمعى يلتزم بها ، منها : ترك الخيال على سجيته ؛ لينساب الشعر فى جدول طبيعى يعتدل أحياناً ويلتوى أحياناً بحسب مزاج صاحبه ، وليس الشعر لهؤلاء الذين يتعملون فى صنع القصيدة وتحديد أطرافها ، فكان يقول : (زهير بن أبى سلمى ، والحطيئة ، وأشباههما عبيد الشعر) .

وكذلك كل من جوّد الشعر ووقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يُخرج أبيات القصيدة كلها مستوية فى الجودة . وكان يقال : لولا أن الشعر قد كان استعبدهم ، واستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم فى باب التكلف وأصحاب الصنعة ومن يلتمس قهر الكلام واغتصاب الألفاظ – لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعانى سهوًا رهوًا ، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالاً وإنما الشعر المحمود كشعر النابغة الجعدى ، ورؤبة ، ولذلك قالوا فى شعره : (مطرف

(١٨) كتاب الصناعتين ٥٨ ط دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٥٢ .

(١٩) كتاب الصناعتين ٣٩٢ .

بآلاف ، وخمار بواف !)[٢٠] .

ومن هذه السجية يكون الابتكار والإبداع والخلق ، أما الصناعة فهى متأثرة بمناهج السلف ومعتمدة عليها : سُئل الأصمعى عن بشار ومروان أيهما أشعر فقال : بشار ؛ فسئل عن السبب فى هذا فقال : (لأن مروان سلك طريقاً كثر من يسلكه ، فلم يلحق من تقدمه وشركه فيه من كان فى عصره ، وبشار سلك طريقًا لم يسلك ، وأحسن فيه ، وتفرد به ، وهو أكثر تصرفاً وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعًا ، ومروان لم يتجاوز مذهب الأوائل)[٢١] ووصف بشار بن برد بأنه كان مطبوعاً لا يكلف طبعه شيئًا[٢٢] .

وللأصمعى اختيارات ومقطعات يستحسنها لسهولة الطبع وعدم التكلف فهو يستحسن مثلاً قول نصيب :

فإن يك من لونى السواد فإننى لكالمسك لا يروى من المسك ذائقه
وما ضر أثوابى سوادى وتحتها لباس من العلياء بيض بنائقه
إذا المرء لم يبذل من الود مثلما بذلت له فاعلم بأنى مفارقه[٢٣]

وكان إذا سمعها قال : قاتل الله نصيبًا ! ما أشعره !

وكذلك كان يستحسن قول أبى العتاهية :

أنت ما استغنيت عن صا حبك الدهر أخوه
فإذا احتجت إليه ساعةً مجك فوه[٢٤]

وأنشِد قول إسحق الموصلى : يذكر ولاءه لخزيمة بن خازم :

إذا كانت الأحرار أصلى ومنصبى ودافع ضيمى خازم وابن خازم
عطست بأنف شامخ وتناولت يداى الثريا قاعداً غير قائم[٢٥]

فجعل الأصمعى يعجب من ذلك ويستحسنه .

وبهذه الكثرة الكاثرة من رواية الشعر ، وبهذا العلم الغزير فى دقائقه – دخل ميدان الرواية

---

(٢٠) انظر البيان والتبيين ٢ : ١٣ بتحقيق عبد السلام هارون .
(٢١) الأغانى ٣ : ١٤٧ ط دار الكتب .
(٢٢) الأغانى ٣ : ١٤٩ .
(٢٣) الأغانى ١ : ٣٥٤ .
(٢٤) الأغانى ٤ : ١١ .
(٢٥) الأغانى ٥ : ٢٧٩ .

اللغوية ، فتبوأ فيها مركز الصدارة ، وأصبح من فحول الرواة فى البصرة ، بل فحلها فى البصرة وفى غير البصرة !

رواية الدواوين :

أخذ الأصمعى عن أبى القاسم حماد بن سابور المعروف بالراوية ؛ كما أخذ عن خلف الأحمر ، وقد اشتهر حماد بمعرفته لأيام العرب وأخبارها وأنسابها وأشعارها ، وأنه هو الذى جمع السبع الطوال[٢٦] ، ولكن الأصمعى لاحظ أنهما يميلان إلى وضع القصائد ينسبانها إلى شعراء العرب أو يصححان الأبيات بتغييرها ، فاتجه إلى مصادر أخرى فى سبيل دراسته لجاميع الشعر وأشعار القبائل ، وصار يقصد الثقات من الناس متفرقين : فالرياشى يحدث عن الأصمعى أنه كتب للحطيئة فى ليلة أربعين قصيدة[٢٧] ، وكان الأصمعى أحسن من روى شعر الهذليين ، وعقد لها المجالس الخاصة لرواياتها ، ومع علمه ودرايته كان يتلقى فى هذه المجالس رأى الأعراب فيها ، وفيما يروى منها ، قرئ عليه فى شعر أبى ذؤيب :

بأسفل ذات الدبر أفرد جحشها

بالياء فى كلمة الدبر بدلا من الباء ، فقال أعرابى حضر المجلس : ضل ضلالك أيها القارئ ! إنما هى ذات الدبر ، وهى ثنية عندنا ، فأخذ الأصمعى بقوله[٢٨] .

وكان محمد بن إدريس الشافعى أحسن الناس معرفة بشعر الهذليين ؛ إذ بقى فيهم سبع عشرة سنة يرحل برحيلهم وينزل بنزولهم يتعلم كلامهم ويأخذ طبعهم ، وكان الأصمعى يعرف فيه ذلك ، فرحل إليه فى الحجاز وتلمذ له والشافعى يومئذ صغير السن ، وعبر عن ذلك بقوله : (صححتُ أشعار هذيل على فتًى من قريش يقال له : محمد بن إدريس الشافعى)[٢٩] .

وديوان الهذليين الذى بأيدينا رواه أبو سعيد السكرى معتمداً على رواية الأصمعى فى الكثير منه (خمسة أجزاء من ثمانية) ؛ كما كان يعود إلى رأى الأصمعى فى كثير مما رواه عن غيره أو

---

(٢٦) وفيات الأعيان ١ : ٤٤٨ .

(٢٧) الأغانى ٢ : ١٧٤ .

(٢٨) الشعر والشعراء ١ : ٢٩ .

(٢٩) معجم الأدباء ١٧ : ٢٩٩ .

يعقد مقارنة بين الروايات المختلفة ، فيقول مثلا : (والأصمعى يروى هذا البيت متأخرًا عن الذى يليه – أو يحذف هذه الأبيات ، أو لم ترد هذه الأبيات فى رواية الأصمعى) ، ولم يقتصر السكرى على رواية المتن ، وإنما كان يعتمد عليه كذلك فى شرحه للأبيات ، ويشير إلى ذلك فى أماكن متفرقة من الكتاب[٣٠] ، . كما كان يشير إلى أماكن انتهاء رواية الأصمعى فيقول بعد البيت الثالث من قصيدة أبى ذؤيب :

لعمرك والمنايا غالبات لكل بنى أب منها ذنوب

عبارة (هنا كمل الجزء من ديوان الهذليين وهو من رواية أبى سعيد عن الأصمعى)[٣١] وبعد أن تنتهى قصائد أبى ذؤيب تبدأ قصائد ساعدة بن جويرية ، وتقرأ بعد البيت الخامس من القطعة الأولى (كمل الجزء الثانى ، ثم يبدأ الجزء الثالث من ديوان الهذليين وهو رواية عن الأصمعى) وعلق السكرى على قصيدة أبى ذؤيب السابعة التى مطلعها :

يا بيت بخثماء الذى يتحبب ذهب الشباب وحبها لا يذهب

بقوله : إن الأصمعى لم يعرف هذه القصيدة ، وكأنه يعزز رأى الأصمعى بعدم نسبتها إلى أبى ذؤيب بقوله : إن كلثوم بن خالد ينسبها لرجل من خزاعة ، ويقول : إن الزبير ينسبها لابن أبى دياكل[٣٢] .

وأبو سعيد السكرى لم يرو عن الأصمعى مباشرة فهو متأخر عنه ، ولكنه عوّل على رواية آخرين نقلوا عن الأصمعى لم يشر إليهم .

والأخبار المتفرقة تشير إلى أن الأصمعى جمع دواوين المشاهير من الشعراء وبلغ فى روايتها مبلغاً جعل الرواة من بعده يطمئنون إلى روايته ، ويشيرون إليها على أنها أمثل المصادر . والأعلم ابن يوسف الشنتمرى من رجال القرن الخامس يرفع الأصمعى إلى أعلى مراتب الرواية . فقد جمع أشعار ستة من القدماء فى ديوان واحد وهم : امرؤ القيس ، والنابغة ، وعلقمة ، وزهير ، وطرفة ، وعنترة ، وهو إذ يرى الأصمعى أوثق من روى – بدأ فى كل ديوان بروايته حتى إذا استوفاها نصّ على انتهائها وميّز آخرها ، وقال : (قد اعتمدت فيما جلبته من هذه

---

(٣٠) انظر ديوان الهذليين ط دار الكتب ص ١٦ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ إلخ .

(٣١) ديوان الهذليين ١ : ٩٢ .

(٣٢) المصدر السابق ١ : ٦٣ .

الأشعار على أصح رواياتها ، وأوضح طرقاتها وهى رواية عبد الملك بن قريب الأصمعى لتواطؤ الناس عليها واعتيادهم لها واتفاق الجمهور على تفضيلها) .

امتناع الأصمعى عن رواية شعر الهجاء :

لاحظ العلماء امتناع الأصمعى عن رواية شعر الهجاء ، ومع ما رأيناه من صدق الأصمعى فى رواية الشعر فإن الأخبار الكثيرة تشير إلى وقوفه عند شعر الهجاء لا يرويه ولا يفسره (٣٣) .

وهو بهذا – إن امتدح لتعففه عن رواية الإفحاش والسَّب – فقد حَرَمَ الأدب العربى ركناً له خطره فى مذاكرة الشعر واللغة والنقد والنسب ووجوه المثالب والمناقب ، وبالجملة فإن شعر الهجاء كان يمثل دعامة قويةً فى التاريخ الأدبى ، وإنّ تَرْك الأصمعى له يعد من المآخذ عليه .

ومن حق الباحث أن يقف أمام امتناع الأصمعى عن رواية شعر الهجاء ويتساءل عن الداعى الذى فرض عليه هذا المسلك ، وليس هذا الداعى هو عدم حفظه للهجاء وهو الراوية الذى عُدَّ فى هذا الميدان أعجوبة من الأعاجيب ، وقد كان بلا شك يحفظ من هذا اللون من الشعر مثل حفظه من غيره من الألوان وحَمْلُ المسألة على ما عُرِف به الأصمعى من الورع أمر صعب ، فقد كان على ورعه يروى من مجون العرب وطرائف نوادرهم مالا يُقِرّه إيغال فى الورع والتزمت ، ولكن الذى نعتقده ونستطيع أن نستنبطه من مقومات شخصية الأصمعى أنه كان من ذلك الطراز من العلماء الذين يجنحون إلى السلم ، ويؤثرون العافية ويتحرون فى تعليمهم ألاّ يرضوا فئة بإغضاب فئة أخرى ، ظهر ذلك جليًا فيما سبق أن أوضحنا ، فى موقفه مما كان يثار فى عصره من كلام فى القدر وفى إضرابه عن الجولان فى ميادين التفسير والحديث . كان الرجل يريد ان يكون راوية للشعر واللغة ، وأن يقبل عليه الناس جميعاً على اختلاف مشاربهم وأهوائهم . فلا يكون لبعض نزعاته فى الرواية كارهون ينالون منه أو يطعنون عليه ، وكان الرجل إلى جانب ذلك على شىء من الجبن يفرض عليه تجنب المشاكل والمنازعات التى يتعرض لها المتحزبون !

---

(٣٣) قال أبو حاتم : سمعت الأصمعى يقول : تسعة أعشار شعر الفرزدق سرقة ، وكان يكابر ، وأما جرير فما علمته سرق إلا نصف بيت ، وقال : ولا أدرى ولعله وافق شيء شيئاً قلت : وماهو فقال : هجاء ، ولم يخبرنا به قال أبو حاتم : وقد رأيته بعد فى شعره . الموشح ١٠٥ .

بدأ هذا الخوف جليًّا فى فراره من بغداد بعد نكبة البرامكة ، وفى بقائه فى البصرة لا يعود إلى بغداد حتى الممات برغم احتيال المأمون عليه ومحاولات إرجاعه إليها ، كان مشهد رأس جعفر البرمكى بين يدى هارون الرشيد الغاضب الباطش وقول الخليفة له : (الحق بأهلك يابن قريب) – نذيراً مفزعاً يطارده حيثما كان ويبعده عن أبواب القصر وعن كل مايذكره بأبهة الأمراء ، كان ركوب الحمير فى أزقة البصرة أحسن لديه من براذين الخلفاء .

ومن هذه الصور ترددد على باب المسجد الجامع فى البصرة وقوله : (انظروا لا يكون هنا) يعنى أبا عبيدة حتى لا يسمع من لسانه ما عرف به أبو عبيدة من الحدة وشدة البادرة .

كان يعلم أن شعر الهجاء هو ديوان مثالب العرب ، وأنه لا محالة إن روى منه طرفاً ألّب عليه كثيراً من أبناء القبائل المثلوبة ، وكان يعلم أيضاً أن انتماءه إلى باهلة لن يقيه عادية الألسن ، بل قد يكون الأمر بالعكس وأن أباه كان هدفاً لإسحق بن إبراهيم الموصلى عندما نشب بينهما الخلاف وأن الألسن لا سلطان عليها وقد تصيب بالاختلاق والافتراء إذا أعوزتها الوقائع الفاضحة المزرية فإسحق مثلاً ينال من أبيه فى قصة ذكرناها ، وإن كان لدينا الكثير لنعلق به على ذلك الخبر وجنوح إسحق فيه إلى التزيد والكذب .

ونستطيع أن نقرر أن عزوف الأصمعى عن رواية شعر الهجاء ، كان كما قلنا عزوفاً عن الاستهداف للمشاكل أو الوقوع فى طريق الغضب من بعض الناس ، وهو شىء لم يكن للرجل به قوة ولا لديه فيه رغبة ، بل كان كما قلنا يجب أن يؤخذ علمه عنه دون أن يجر عليه هذا العلم العداوة والبغضاء .

ولقد تبين لنا عندما تكلمنا عن الأصمعى الناقد أنه أتقن فن الرواية فى أقوى وأكمل صوره ، فلم يكن ناقلاً لما قالت العرب فحسب ، وإنما كان مُتذوّقًا لما يروى بصيراً بجيده ، شديد الإحساس بخصائص أساليب كل شاعر ، متمثلاً لمن يروى لهم من الشعراء على حسب مراتبهم فى الفحولة والأخذ بناصية الشعر ، ولهذا نعد وقوف الأصمعى عن رواية شعر الهجاء خسارة وحرماناً .

منهج الأصمعى فى الرواية :

نتساءل الآن عن مدى أمانة الأصمعى ودقته فى الرواية : هل كان يحكم ذوقه أحياناً ويصل بهذا الذوق الفنى إلى تغيير النص ؟ هل كان يستجيب لنزعته الفنية أو كان أميناً على

النص كما تقتضيه أصول الرواية ، جارياً على نهج المُحدِّثين فى هذا .

إن ما قرأناه للآن عن الأصمعى يشير إلى أنه كان ذوّاقةً للشعر عارفاً بأصوله وبكثير من نزعات الشعراء وميولهم وطرق الأداء عندهم ، ولم تكن تعوزه الحيلة لو أراد النظر فى تغيير رواية البيت عن أصله والخروج به عن النص الذى أراده صاحبه ، ولكن الأصمعى لم يلجأ إلى ذلك : كان يشير إلى أماكن يستضعفها ويقول : لو كان هذا مكان هذا كان أصلح ، كما فى قوله (فكفيه إن كان لابد أصلح) معترضاً على الرامى الذى يخرج زنديه من ستره فى قول امرئ القيس وهو ينوح على أبيه :

رب رام من بنى ثعل مخرج زنديه من ستره

أو حينما يقول : كيف تحمل الخمرة إلى ثقيف وعندهم العنب وحينما اعترض على وصف الخمره بالخضره حين قال عدى بن زيد :

والمشرف الهندى نسقى به أخضر مطموثا بماء الخريص[٣٤]

قال : ولم يعلم أحد وصفها بذلك :

وكان يعيب على عدى وصفه للفرس بأنه (فاره) فقال : لا يقال للفرس فاره ، وإنما يقال له : جواد ، وعتيق ، ويقال للكودن والبغل والحمار فاره[٣٥] .

وهو لا يستريح حين يسمع أبا النجم العجلى يصف راعى الإبل بصلابة العصا حين يقول :

صلب العصا جاف عن التغزل

فيقول : لا يوصف راعى الإبل بصلابة العصا ، والجيد قول الراعى :

ضعيف العصا بادى العروق ترى له عليها إذا ما أمحل الناس إصبعا

والأصمعى أعلم بالمسمّيات ، وأقدر على تمييز الصحيح منها وأعرف بمكانه الملائم فى الشعر ، سمع أبا النجم يقول :

---

(٣٤) الشعر والشعراء ١٨٢ دار إحياء الكتب العربية .

المطموث : الممزوج – الخريص : جدول ينبثق فيه الماء من النهر ويعود إليه .

(٣٥) الشعر والشعراء ١٨٢ .

وهى على عذب روى المنهل
دحل أبى المرقال خير الأدحل
من تحت عاد فى الزمان الأول

فقال : الدحل لا تورده الإبل إنما تورد الركايا (جمع ركية وهى البئر) ، ثم عاب عليه أيضاً قوله : من تحت عاد ، قال الأصمعى : والدحلان لا تحفر ولا تنحت إنما هى خروق وشعاب فى الأرض والجبال لا تصيبها الشمس فتبقى فيها المياه ، وهى هوة فى الأرض يضيق فيها ثم يتسع فيدخلها ماء السماء[٣٧] .

ولا تقف ملاحظ الأصمعى الدقيقة عند المسميات وما اعتاده العرب فى حياتهم ، وإنما يتجاوز هذا إلى الصور الحسية التى يتمثلها عند سماع البيت ، فيقارن بين ما سمع وبين ما تخيّل ، فيشير إلى الوضع الأحسن : يقول المرار العبدى فى صفة النخل :

كأن فروعها فى كل ريح عذارى بالذوائب ينتصينا

أى أن فروعها تتقارب وتتجاذب كأنهن ذوائب عذارى تشابكت من القرب . قال الأصمعى : لم يكن له علم بالنخل ، وإذا تباعد النخل كان أجود له وأصلح لثمره[٣٨] .

لم تكن الحيلة تعوز الأصمعى لو أراد أن يغير من رواية البيت أو يصلح بعض ألفاظه ، ولكنه لم يسلك هذا المسلك ، وكل ما عمله أنه كان يشير إلى مكان الضعف فى البيت ، ويقترح له لفظا أصلح منه . ولكنا نجد نصا يشذ فيه الأصمعى عن هذا الأصل وصرح بذلك فقال : قرأت على أبى محرز خلف بن حيان الأحمر شعر جرير فلما بلغت الى قوله :

ويوم كليبهام القطاة محبب إلى صباه غالب لى باطله
رزقنا به الصيد الغزير ولم يكن كمن نبله محرومة وحبائله
فيالك يوما خيرة قبل شره تَغَيَّب واشيه وأقصر عاذله

فقال خلف : ويحه ! فما ينفعه خير يؤول إلى شر فقلت له هكذا قرأته على أبى عمرو ، فقال لى : وكذا قال جرير ، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا ما سمع فقلت : فكيف كان يجب أن يكون ؟ قال : الأجود أن يقول : خيره دون شره ، فاروه كذلك ، فقد كانت الرواة قديماً

---

(٣٦) الشعر والشعراء ٥٩١ .
(٣٧) الأغانى ١٠ : ١٦١ .
(٣٨) الشعر والشعراء ١٨٠ .

تصلح أشعار الأوائل[٣٩] ، فاقتنع الأصمعى بحجة صاحبه وقال : والله لا أرويه بعدها إلا كذا .

ولا نميل إلى التسليم بالخبر فيما أشار إليه من اقتناع الأصمعى بحجة صاحبه . وموافقته على تغيير الرواية بهذه السهولة إلا إذا كانت هناك اعتبارات أخرى حملت الأصمعى على مخالفة منهاجه : فهل كان الأصمعى فى باكورة أيامه ولم يصل إلى وضع المعايير التى رأيناها فى أخريات أيامه فساهل نفسه ، وأخذ برأى خلف ، ليس هذا ببعيد .

كان خلف ممن يغيرون الرواية ، وينحلون الشعر ، فهل تأسى به الأصمعى ، أو أنه سمع عن أبى عمرو بن العلاء وقد زاد بيتا واحدًا نسبه إلى النابغة كما سنذكره بعد – فقلد أستاذه .

على كل حال . نحن أمام هذا الخبر نقف على ظاهرة من أخطر مظاهر الرواية نستطيع منها أن نؤرخ لتطور هام طرأ على منهاجها فى هذه المدرسة التى كان أساطينها أبو عمرو بن العلاء ، وخلف الأحمر ، والأصمعى :

فخلف الأحمر نقل استعمال (قبل) فى البيت واستحسن بدلها كلمة (دون) ، ولكنه أقر أبا عمرو على أن الرواية الصحيحة إنما هى بكلمة (قبل) ، واقترح أن تغير الكلمة الشاذة ، وتوضع بدلها الكلمة المناسبة لا تحكماً منه ، ولا جنوحًا إلى ارتكاب جريمة الانتحال ، وإنما استنادًا إلى تقليد قديم يطالعنا به فى كل ضخامته وخطورته ، وهو أن الأقدمين من الرواة – وهو بلا شك – يقصد أولئك الرواة الذين كان كل واحد منهم يلزم شاعرًا بعينه فيأخذ عنه ويحفظ له – كانوا إذا لزم الأمر يصححون فى أشعار شعرائهم ، أو ينسى كلمة فيعمد إلى الإتيان بكلمة أخرى تتفق مع غرض البيت ووزنه ، وكان الواحد منهم يعتبر ما تلقى من شعر شاعره ميراثاً قد ورثه هو عنه يستطيع أن يتصرف فيه على النحو الذى يبدو له أنه الأمثل ولم يكن الواحد منهم يشعر فى ذلك حرج الكذب ولا تهمة الوضع ولا جناية التحريف حتى إذا جاء عصر هؤلاء الرواة العلماء وجدنا التردد الذى تراه فى هذا الخبر بين الاستمرار فى التقليد القديم أو لزوم المنهج الجديد : منهج الرواية العلمية المبنى على التثبت فى السند والمتن جميعا .

وترى الرجلين هنا – الأصمعى وخلفاً الأحمر يُقِرّان النهج العلمى ، ويجعلان من التغيير الذى اقترحه خلف نكتة نقدية بحيث لا يذكر الشعر إلا ذكر معه هذه النكتة مما يرتفع به كل لبس ، ويثبت فيه النص الأصلى إلى جانب التصحيح ، ولو أن الأصمعى كان قد أخذ بالنهج القديم من التصحيح والتقويم فى كل ما يروى ما حدثنا بذلك فى هذا الخبر بالذات ، ولكان

(٣٩) زهر الآداب ٢ : ١١ ، ١٢ والموشح ١١٥ .

أيضا قد غير حينما أنشد البيت الذى انتهت فيه الخمرة إلى ثقيف ، وأبيات أبى النجم الذى تشابكت فيه أغصان النخيل من القرب ، وبيت عدى بن زيد الذى وصف فيه الخمرة بالخضرة إلى غير ذلك بحيث يستقيم ما بدا له مُعْوَجًّا .

ومما يؤكد جنوح المدرسة القديمة إلى التغيير فى رواية الشعر ما يرويه محمد بن سلام الجحمى قال : سألت يونس عن بيت رووه للزبرقان بن بدر وهو :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقى مربض المستنفر الحامى

قال : هو للنابغة ، أظن الزبرقان استزاده فى شعره كالمثل حين جاء موضعه لا مجتلبًا له ، وقد تفعل ذلك العرب لا يريدون به السرقة[٤٠] . والتمثلُ بالبيت إذا جاءت مناسبته دون الإشارة إلى ذلك يمكن أن يوضع فى تقدير مماثل مع التصحيح والتغيير والانتحال .

وقد تكون هذه الظاهرة مقبولة إذا استهدفت تقريظ الشعر أو إذا جاءت مناسبتها كما فى البيت السابق ، وكما فعل أبو عمرو بن العلاء وقد زاد بيتاً واحدًا فى شعر النابغة وهو :

وأنكرتنى وما كان الذى نكرت من الحوادث إلا الشيبَ والصلعا[٤١]

على شرط أن تذكر هذه الملابسات إلى جانب الرواية الأولى . ولقد أحس أبو عمرو أن فى عمله هذا نوعًا من التزيد يأباه ورعه ونسكه فصرّح به .

أما أولئك الذين سمحوا لأنفسهم بتصحيح الرواية وتجاوزوا ذلك إلى انتحال الشعر فقد وصمهم التاريخ بعملهم هذا ، ولم يفدهم بعد ذلك نسكهم ورجوعهم عن مسلكهم ، وبقيت الأخبار تكشف وتروى من أخبارهم عجبًا :

روى أن أعرابيًّا جاء إلى حماد فأنشده قصيدة أعجب بها حماد ولم يعرفها ، فلما قام الأعرابى قال لتلاميذه لمن ترون أن نجعلها ؟ ، فقالوا : أقوالاً ، فقال حماد : اجعلوها لطرفة ![٤٢] .

وقدم حماد على بلال بن أبى بردة وعنده ذو الرمة فأنشده شعرًا مدحه به ، فقال بلال لذى الرمة : كيف ترى هذا الشعر ؟ فقال : جيدًا وليس له قال : فمن يقوله ؟ قال : لا أدرى ، إلا أنه لم يقله .

فلما قضى بلال حوائج حماد قال له : أن لى إليك حاجة ، قال : هى مقضية ، قال :

---

(٤٠) طبقات فحول الشعراء ٤٨ ، المزهر ١ : ١٨٣ .

(٤١) المزهر ١ : ٢٦٠ ط السعادة .

(٤٢) المزهر ٢ : ٣٥٣ ط السعادة ، الأغانى ١ : ٦٣ .

أنت قلت ذلك الشعر ؟ قال : لا ، قال : فمن يقوله ؟ قال : بعض شعراء الجاهلية ، وهو شعر قديم وما يرويه غيرى ، قال : فمن أين علم ذو الرمة أنه ليس من قولك ؟ قال : عرف كلام أهل الجاهلية من كلام أهل الإسلام[٤٣] ولمسلكه هذا كان المفضل الضبى يقول : قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبدًا . فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطئ فى رواية أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ، ويحمل ذلك عنه فى الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عن عالم ناقد وأين ذلك ....[٤٤] .

وكذلك كان خلف الأحمر البصرى : فقد بلغ من حذقه واقتداره على الشعر أن يشبه شعره بشعر القدماء حتى يشبه بذلك على جلة الرواة ، ولا يفرقوا بينه وبين الشعر القديم . من ذلك قصيدته التى نحلها ابن أخت تأبط شرا التى أولها :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلاً دمه ما يطل

فإنها جازت على جميع الرواة فما فطن بها إلا بعد دهر طويل بقوله :

خبر ما نا بنا مصمئل جَلّ حتى دقّ فيه الأجل

فقال بعضهم : (جل حتى دق فيه الأجل) من كلام المولدين ، فحينئذ أقر بها خلف[٤٥] .

وبلغ الأمر بخلف – وهو كما نعلم أستاذ الأصمعى – أنه كان يلقن طلابه أصول التصرف فى الشعر على هذا النهج : خرج يومًا على أصحابه فأنشدهم قول النمر بن تولب :

ألمّ يصحبنى وهمٌ هجود خيالٌ طارق من أم حصن

وقال : لو كان مكان (أم حصن) (أم حفص) كيف يكون قوله :

لها ما تشتهى عسل مصفىً وإن شاءت فَحُوَّارَى بسمن

فقالوا : لا ندرى ! فقال :

وإن شاءت فحوارى بلمص

---

(٤٣) الأغانى ٦ : ٨٨ .

(٤٤) معجم الأدباء ١٠ : ٢٦٥ .

(٤٥) إنباه الرواه ١ : ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

واللمص : الفالوذج [٤٦] .

ونستطيع أن نؤكد أن الأصمعى لم يسلك سلوك خلف الأحمر واصطناعه الشعر ينسبه إلى من يشاء ، ولا تغيير الرواية على الوجه الذى يستحسنه ؛ ولا مسلك حماد الذى كان يأمر صبياته بأن يجعلوا هذه القصيدة أو تلك لهذا الشاعر أو ذاك وفيما عدا هذا البيت الواحد الذى تابع فيه خلفاً وقال : لا أرويه إلا كذلك — لم نجد للأصمعى خبرا أو شهرة فى هذا اللون من التغيير أو الافتعال .

(٤٦) إنباه الرواة ١ : ٣٥ .

obeikandl.com